٢

جينالوجيا الحرب عند فلاسفة العقد الاجتماعي

معاينة اثنوغرافية

The Genealogy of War in the Philosophers of the Social Contract

Ethnographic Review

كلمات مفاتيح/ فلاسفة العقد الاجتماعي، توماس هوبز، جون لوك، روسو، هربرت سبنسر

Keywords/ Social Contract Philosophers, Thomas Hobbes, John Locke, Rousseau, Herbert Spence

مدرس مساعد/ وليد عليوي سوادي

Assistant Lecturer Waleed Eliwi Suwadi

أ.د ياس خضر عباس

Prof. Dr. Yas Khuder Abbas

الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب / قسم الانثروبولوجيا الاجتماع

Al-Mustansiriya University/College of Arts/Department of Sociological Anthropology

ملخص:

اتجه البحث نحو بيان اهم المواقف والتصورات التي قدمها اهم فلاسفة العقد الاجتماعي المرتبطة بمفهوم الحرب، والتي اندرجت في أربعة محاور هي: الحرب والطبيعة البشرية عند توماس هوبز، واختراع وصناعة الحرب عند جان جاك روسو، وفلسفة جون لوك السياسية ومفهوم المجتمع المدني، وأخيرا الحرب والتطور البشري عند هربرت سبنسر، وقد ناقش البحث مناقشة مستفيضة كل محور على حدة، وبيان اهم الآراء الفلسفية.

Abstract:

The research aimed to clarify the most important positions and concepts presented by the most important philosophers of the social contract related to the concept of war, which were included in four axes: war and human nature according to Thomas Hobbes, the invention and manufacture of war according to Jean-Jacques Rousseau, John Locke's political philosophy and the concept of civil society, and finally war and human development according to Herbert Spencer. The research discussed each axis in detail, and clarified the most important philosophical views.

توطئة:

الحرب من الظواهر التي ترتبط بالتاريخ البشري والانساني، لذلك هي محل للتفكير الفلسفي، لأنها تتعلق بالوجود الانساني، الذي ينطوي هو الاخر على مفهوم يعد مقدمة لظاهرة الحرب، وهو الصراع، فالندرة والمصالح والانانية نزعات انسانية تؤدي الى الصراع والتنافس والعدوان، من ثم فان الحرب تقع في حال تحكمت تلك النزعات بالبشر، لذلك جينالوجيا الحرب تنطلق من فرضيات فلسفية منقسمة بين الحالة الطبيعية والحالة الاجتماعية، وتحاول الفلسفة عبر ادواتها المعيارية تقديم فهم واضح لظاهرة الحرب وامكانيات فهم مسوغاتها، لكن الفلاسفة انقسموا في رؤيتهم للحرب، فمنهم من اعتقد ان الإنسان شرير بطبعه وهذا متأصل في طبيعته البيولوجية والسايكولوجية، وان الأديان والقوانين والتشريعات وقيام الدولة بمؤسساتها المتعددة والاعراف والتقاليد انما جاءت لتحد من الشرور التي فطر عليها. في حين يذهب فريق آخر الى الاعتقاد ان الانسان خير بطبعه، وان الارتماء بأحضان الجسد ومتطلباته تجعله انساناً شريراً بهيمياً لا يشبع من شهواته ومن شهوة

السيطرة والاعتداء على الاخرين واخذ ما يملكون بالقوة، ومن هنا يبدأ التأسيس للحرب بأبسط صورها.

اولا: الحرب والطبيعة البشرية (توماس هوبز).

يعد توماس هوبز من ابرز المنظرين لموضوع السلطة والدولة والفكر السياسي فهو يرى إن لدى الجنس البشري، رغبة دائمة لا تهدأ باقتناء السلطة بعد السلطة، وهي رغبة لا تنتهي إلا بالموت. ولد الانكليزي (توماس هوبز ١٥٨٨-١٦٧٩م) في انكلترا في عصر الاضطراب السياسي والصراع المذهبي والحرب الأهلية، وكان والده قساً بسيطاً ذو طبع حاد، أدخله المدرسة حيث تعلم اللاتينية والإغريقية، وتخرج من جامعة أكسفورد ليرتبط بعلاقة وثيقة مع أسرة (كافانديش) البريطانية النبيلة التي أتاحت له فرصة السفر بصحبتها إلى بلدان القارة الأوروبية كلها تقريباً. وترتبط مؤلفات هوبز السياسية ارتباطاً وثيقاً بواقع إنجلترا وأحوالها في عصره، حيث وضع عام ١٦٤٣م كتابه (عناصر الفلسفة: المواطن) وكرسه للدفاع عن السلطة المطلقة، وعندما اندلعت الحرب الأهلية في إنجلترا لجأ بمحض إرادته إلى فرنسا، وبعد عودته منها وضع عام ١٦٥٠م كتابه الشهير (اللفياثان: الوحش / التنين)، ولكن عمله لم يقتصر على هذين الكتابين حيث وضع كتباً أخرى تتعلق بالمنطق والرياضيات وفلسفة القانون. لكن هذا الكتاب كما تقول مقدمة ترجمته إلى العربية، أصبح أشهر كتبه، بل وأحد أشهر الكتب في مسألة السلطة والدولة في القرون الأخيرة بعد كتاب مكيافيللي (الأمير)، وكان هدفه منه، هو دراسة أفضل السبل لتأسيس الدولة والشرعية على أساس فلسفي متين.

ويتجاوز اقتناع هوبز القاطع بالعثور على (الحل النهائي) لمسألة الدولة، وعرضه في كتاب (اللفياثان)، حدود عصره وأحواله المضطربة، ليمتد إلى المجتمعات والعصور اللاحقة أيضا وحتى يومنا هذا (الطعان و آخرون، ٢٠٢٢، صفحة ٧٧).

وأسس هوبز نظريته السياسية في هذا الكتاب على الربط بين علم الهندسة بوصفه علما طبيعيا، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، وهو ما كان قد سبقه إليه الفرنسي ديكارت في النصف الأول من القرن السابع عشر ١٦٠٠-١٧٠٠م، وعلل هوبز ذلك الربط وفسره بتأثره بكتاب إقليدس (الأصول) عن الحتميات الرياضية والهندسية، الذي وصفه بأنه المثال للعلم اليقيني، وأن مسبقات علم الهندسة الإقليدية ومسلماته، هي التي تؤسس لنظرية الدولة وتكسبها الطابع العلمي القيني ذاته. وإذ كان هوبز يعتقد بأن علم الرياضيات والهندسة، هو العلم القائم على البديهيات والمسلمات العقلية

والبرهانية، فقد كان يعتقد أيضا بأن نظرية الدولة التي تتأسس على هذا العلم، حَرِيّةً وجديرة بإرغام كل أحد على الاقتناع بها. وقد كشف عن ذلك في كتابيه (الجسم) و (الإنسان)، ثم في كتابه الأشهر (اللفياثان) الذي أقام بناءه على فكرة أساسية مفادها: إن ثمة عالم طبيعي وفيه أجسام تتحرك، وأن حركة الأجسام الإنسانية في العالم الطبيعي، تُحدث حركة ميكانيكية ينتج عنها بالضرورة المجتمع أولا (المجتمع الطبيعي الحر المنعدم السلطة) ، ثم الدولة (المجتمع السياسي المقيد بالقانون والخاضع للسلطة)، حيث تعيد الدولة تأسيس المجتمع الطبيعي الحر، وتتولى إدارة شؤونه على قاعدة التعاقد الشخصي والاتفاق الإرادي للأفراد على التنازل عن كل حقوقهم للحاكم (صاحب السيادة، وتسليمهم له بالسلطة من دون قيد ولا شرط ولا التزام عليه، بما يسمح له بأن يشرع القانون ويطبقه عليهم، ليحقق لهم الأمن ويقيم النظام (توماس هوبز. اللفياثان مواضع متعددة ومتفرقة). ولكن فكر هوبز السياسي، كان في واقع الأمر محكوما في مقدماته ونتائجه بحالة الخوف التي كان يعيشها كمواطن في زمن وبلد، تعرضا للتقلبات السريعة والحادة بفعل الانقسامات والصراعات المذهبية والثورات السياسية وما نتج عنها من حرب أهلية، اقترنت بقتل العديد من الشخصيات البارزة بما في ذلك الملك شارل الأول، مما جعل أفكار هوبز تعبيرا عن خوفه هذا ورد فعل عليه، فوجّة جهوده الفكرية للتأسيس لنظام سياسي قادر على تحقيق الأمن وتوفير السلام والطمأنينة حتى ولو قام هذا النظام على السلطة المطلقة (الطعان و آخرون، ٢٠٢٢، صفحة ٧٨).

لذلك، فقد كان البحث عن السلام والطمأنينة هو الهاجس البديل لديه عن هاجس الخوف ليكون حضور الأول ضمانا لغياب الثاني، وما شغل بال هذا المفكر بشكل خاص هو الوسيلة التي بموجبها يتحقق الأمن والسلام والطمأنينة ليتم تجاوز الخوف وتمثلت هذه الوسيلة لديه في السلطة المطلقة.

الانتقال من حالة الطبيعة إلى المجتمع عند هوبز.

يرسم هوبز صورتين للوجود الإنساني:

الصورة الأولى: صورة الوجود الإنساني الأول، والتي يعترف هوبز صراحة بأنه يستمدها من العهد القديم، وهي الصورة التي تفيد بأن الله خلق آدم وأسكنه الجنة، وكانت فيها شجرتان شجرة الحياة التي لم يمنعه من أن يأكل منها ليتمتع بالخلود وشجرة المعرفة (معرفة الخير والشر التي منعه من الأكل منها، لكن ادم خالف أمر الله له واكل من شجرة المعرفة فطرده الله فورا من الجنة لكي لا

يمد يده إلى شجرة الحياة، فيأكل منها فينال الخلود الذي كان سيحظى به لو لم يخطئ ويخالف أمر الله له، فكانت تلك هي الخطيئة الأولى، وأن المسيح (ع)، دفع بتضحيته وموته على الصليب ثمن أخطاء كل المؤمنين به، فاستعاد لهم بعد الموت فرصتهم في أن يحظوا بنعمة الحياة الأبدية التى ضاعت منهم بسبب خطيئة آدم.

الصورة الثانية: صورة المجتمع الإنساني الأرضي الأول في حالة الطبيعة المرحلة الاجتماعية الطبيعية، وهي الحالة التي وجدت قبل أن يوجد المجتمع المُنظَّم والمحكوم، وقبل أن توجد السلطة المنظمة والحاكمة، وأن مبدأ الرغبة في كل شيء هو الذي حكم الإنسان في تلك الحالة الطبيعية التي كان يتحرك فيها بفعل الاعتبارات الذاتية المتعلقة بالحصول على قوته والحفاظ على أمنه الخاص به، ولا أهمية بعد ذلك لسواه من البشر إلا بقدر ما يمسه أمرهم أو يؤثر فيه. وعليه فإن مجتمع الطبيعة، هو مجتمع الإنسان المنافس للإنسان، والنتيجة المترتبة على ب الحرب الدائمة (حرب الواحد ضد الآخر) و (حرب الجميع ضد الجميع، أو حرب الكل ضد الكل) (الطعان و آخرون، ٢٠٢٢، صفحة ٧٩).

ولا تقتصر الحرب في مثل هذه الحالة على الصراع المادي فحسب، بل وتمتد وتتسع لتعني أيضا، الإرادة الثابتة والعامة والدائمة في الصراع، وطالما توجد مثل هذه الإرادة فستكون الحرب هي الحالة السائدة والدائمة، وليس السلام وسيكون الإنسان ذئباً تجاه الإنسان. وإذ يعاني المجتمع الطبيعي من الصراع وما ينتج عنه من الحرب الدائمة والشاملة، فستكون السمات السلبية المميزة لهذا المجتمع هي:

– عدم وجود مكان على الأرض للصناعة ولا للمعرفة ولا لقياس الزمن ولا للفنون والآداب ولا المجتمع، وكل الذي يوجد هو الخوف الدائم وخطر الموت.

– عدم وجود مكان على الأرض لما هو عادل أو ظالم، فحيث لا توجد قوة منظمة ومسيطرة وعامة لا يوجد قانون وحيث لا يوجد قانون لا يوجد لا عدل ولا ظلم.

– عدم وجود مكان على الأرض فيه ملكية شخصية للأشياء، أو فيه ما هو لي وما هو لك بشكل تتميز فيه ملكية الواحد عن الآخر، فالشخص لا يمتلك إلا ما يستطيع الحصول عليه ويتمكن من الاحتفاظ بملكيته له وحمايته من عدوان الآخرين.

وبذلك، فإن جوهر حالة الطبيعة لدى هوبز، يعبر عن الواقع الاجتماعي الاقتصادي الذي استجد على إنجلترا في أعقاب العهد الفيكتوري، وعانى فيها من الاضطرابات والحروب المذهبية الطائفية

الدامية التي طال فيها الموت حتى الملوك أنفسهم، وربما تفسر هذه الظروف المضطربة سعيه لتبرير قيام الدولة وسلطتها المطلقة التي تسمح لها بالتدخل في شؤون الحياة الاجتماعية كلها، وبشكل خاص، الشؤون الاقتصادية، باعتبار أن هذا التدخل عند هوبز، ضرورة حيوية لازمة للقضاء على البطالة وتحديد النفقات الخاصة للرعايا، وان السلطة الملكية المطلقة هي أداة ذلك التدخل، وأنها أيضا وبالأساس أداة ضمان توازن المصالح في ظروف الاضطراب والتنافس والصراع (الطعان و آخرون، ٢٠٢٢، صفحة ٨٢).

قوانين الطبيعة عند هوبز

إذا كان أساس حالة الطبيعة وشرطها ومحرك نشاطات الإنسان فيها عند هوبز هو (مبدأ الرغبة). فإن أساس وشرط الخروج منها وإقامة المجتمع المدني السياسي عنده هو (مبدأ العقل)، لأن العقل هو ما يميز الإنسان، وهو أيضا ما يُعلَمُ الإنسان أن يسارع لحل تناقضات الحالة الطبيعية وصراعاتها، وهو القوة التي تنظم المجتمع وتنقله من الحالة المجتمعية الطبيعية إلى الحالة المجتمعية المدنية – السياسية. ولكن هذا الانتقال لا يحدث بشكل اعتباطي، بل يحدث وفقاً لقوانين الطبيعة التي تقرر ما يعمله كل كائن عاقل، فقانون الطبيعة عند هوبز هو كل ما يمليه العقل السليم الذي يُعلَمُ الأشياء التي يجب عملها والأشياء التي يجب استبعادها من أجل المحافظة على استمرار الحياة. ويُحدد هوبز تسعة عشر قانوناً طبيعياً لكنه يؤكد بوجه خاص على قانونين طبيعيين رئيسيين من بينها هما :

– قانون البحث عن السلام

– قانون الدفاع عن النفس بكل الطرق المتوفرة.

ويمكن في ضوء هذين القانونين القول بأن هوبز يعد المحافظة على الذات هي النقطة المركزية في نشاطات الحياة الإنسانية، وعندما تكتسب المحافظة على الذات مثل هذه المكانة المحورية في حياة الناس، فإنها ستدفعهم إلى التعاون، بل وتجبرهم عليه، فضمان الإنسان لأمنه، يلزمه فرض عليه السعي لتحقيق السلام، ولأنه لا يستطيع تحقيق السلام بمفرده، فان عليه التعاون مع غيره لتحقيقه. واستنادا إلى ذلك، فقد رأى هوبز أن تطلع الناس وسعيهم لتحقيق الأمن والسلام لأنفسهم، يجبرهم على الاتفاق (العقد الاجتماعي) على التنازل عن الحق المطلق الذي يمتلكه كل فرد منهم في الدفاع عن نفسه وضمان أمنه وسلامته عندما يعيش في حالة الطبيعة، وهو حق مواز ومساو لحق مماثل يمتلكه كل شخص آخر، لأن حق كل إنسان وقدرته على ممارسة حق مطلق في

ضمان أمنه وسلامته دون قيد أو شرط، هو سبب الفوضى والدمار. ولا يمكن تحقيق الهدف المرجو من هذا الاتفاق، إلا إذا وجدت قوة قاهرة وسلطة قادرة على إلزام الناس وإرغامهم على تطبيق ما اتفقوا عليه، وأن تضمن ذلك الاتفاق وتحميه بما تمتلكه من الشروط المادية والمعنوية المؤكدة والملحوظة والملموسة عيانيا للقدرة على إيقاع العقاب بمخالفيها والخارجين عليها، لأن القوانين على حد قول هوبز تكون موضع احترام لأنها تثير الخوف والاتفاقيات البعيدة عن السيوف، ليست سوى ألفاظ خالية من أية قوة تؤمن الحماية لأي كان (الطعان و آخرون، ٢٠٢٢، صفحة ٨٣).

وتعرض عددا من المفكرين لتوجهات هوبز مثل الكتاب الذي نشر في عام ١٧٦٧ الفيلسوف الاسكتلندي آدم فيرجسون Adam Ferguson في مقالاً عن تاريخ المجتمع المدني، والذي أطلق عليه أول محاولة للتحقيق التجريبي في أصول الحرب باستعمال البيانات الإثنوغرافية، وبدا أن هذه البيانات تؤكد ما قاله هوبز: فالدول البدائية كانت في الواقع دولة حرب: "لقد أتيحت لنا الفرصة لملاحظة أن الحرب هي العمل الرئيسي في كل دولة وحشية؛ وأن البشر في العصور الهمجية، الذين ينقسمون عموماً إلى مجموعات صغيرة، ينخرطون في أعمال عدائية شبه دائمة (Ferguson, 1971, p. ٣). إن تفسير فيرجسون لهذه الأعمال العدائية ينبئ بتطورات معينة في النظرية الأنثروبولوجية اللاحقة. ومن بين الدوافع الهوبزية للحرب . المنافسة، والخجل، والمجد . يعطي فيرجسون الأولوية للمجد. إن فيرجسون يرى أن كلاً من آكلي لحوم البشر والملوك يقاتلون من أجل الشرف أكثر من القتال من أجل الغنائم أو أي مصلحة مادية أخرى: "إن البشر لا يجدون في حالتهم مصادر الاختلاف والخلاف فحسب: بل يبدو أنهم يحملون في أذهانهم بذور العداوة، ويحتضنون فرص المعارضة المتبادلة، بحيوية ومتعة".إن السبب الأساسي للحرب هو "التنافس" البسيط ويرى فيرجسون أن الحرب تحمل قيماً إيجابية، في حين لم ير هوبز فيها إلا شراً ضرورياً. ويشير فيرجسون إلى أن الحرب تفرض الوحدة المدنية، وتولد الفضيلة المدنية، وتعزز التنظيم المدني، بل وربما تكون في الواقع شرطاً أساسياً لوجود الحضارة ذاتها. بالإضافة إلى الحفاظ على توازن القوى، ينسب فيرجسون إلى ان وظيفة الحرب الحفاظ على التضامن المدني والمعنويات، ويمكن العثور على هذه الفكرة أيضاً لدى المؤلفين الكلاسيكيين، وخاصة الرومان، كما أشاد بها العديد من كتاب العصر الحديث المبكر.

ويصف فيرجسون ما أطلق عليه الداروينيون الاجتماعيون وعلماء الأحياء الاجتماعية في وقت لاحق "المركزية العرقية ethnocentricism "، ولو أنه يبدو من غير المرجح أن يكون أي منهم

قد تأثر بشكل مباشر بفيرجسون. وتضفي هذه الفكرة قدراً كبيراً من الدقة على أطروحة هوبز، ولو لم يكن الاستخدام قد نسبها إلى هوبز لكان من الأفضل أن نطلق عليها أطروحة فيرجسون. فوفقاً لهوبز لم يكن هناك سوى الأنانية الفوضوية في الطبيعة البشرية، ولو أن هذا جعل من المستحيل عليه أن يفسر من أين يأتي "المجد"، لأن هذا بطبيعته دافع اجتماعي، ولا ينبغي للناس الذين يعيشون في حالة طبيعية غير اجتماعية أن يهتموا بسمعتهم. وفي إعادة صياغة فيرجسون الأكثر معقولية، تخدم الحرب وظيفتين متكاملتين، الوظيفة الداخلية المتمثلة في الحفاظ على التضامن والفضيلة والوظيفة الخارجية المتمثلة في الحفاظ على توازن القوى. ويتطلب كل منهما الآخر لأننا لا نستطيع أن نشعر بالتنافس بدون منافسين، ولن تنجح منافستنا ما لم تحمل كلمة "نحن" معنى عميقاً بالنسبة لنا. فالصداقة بين أفراد المجموعة تعتمد على العداوة بين أفراد المجموعة الخارجية والعكس صحيح (Ferguson, 1971, p. ٤).

ثانيا: اختراع وصناعة الحرب (جان جاك روسو).

تكشف الأسطر الأولى من كتاب العقد الاجتماعي أن موضوعه الأساس هو تحديد قواعد إقامة نظام سياسي شرعي، حيث يقول روسو في بداية الفصل الأول منه: (إن الإنسان يولد حراً إلا أنه مكبل بالقيود في كل مكان) ممهدا بذلك الطريق للبحث في شرعية افتقاد الإنسان لحريته الطبيعية تلمسا الشرعية قيام المجتمع السياسي بصورة عامة. وقبل أن يقدم روسو الإجابة المناسبة لذلك، يورد بعض الإجابات فيقول مثلاً إن الحرب ليست سبباً كافيا للتحول من حالة الحرية إلى حالة العبودية بفعل قيام السلطة السياسية، لذلك تبقى المشكلة قائمة. ويطرح روسو مسألة قيام المجتمع السياسي استنادا إلى افتراض أولي يفيد بأن تحقيق ذلك الانتقال من الحرية إلى العبودية، يتطلب وجود عقد اجتماعي يحدد طبيعة الاتحاد الاجتماعي السياسي ومضمونه وشكله. ولاشك أن شروط العقد الاجتماعي لم تُعلن بأي حال من الأحوال بالطرق الشكلية المعهودة، وإنما تم التسليم بها ضمنياً في كل مكان، وبموجب هذا العقد فإن كل من ينضوي تحت لواء الاتحاد الناشئ عنه، يتنازل عن كل حقوقه الخاصة لمصلحة الجماعة التي يمثلها الاتحاد (النوري، ٢٠١٠، صفحة ٢٣٣).

وإذا ما بدا مثل هذا الشرط الذي يتضمنه العقد ثقيلاً للوهلة الأولى، فإن روسو يعتقد أن ما يجعله مقبولاً بالنسبة للشخص الواحد، بقدر ما هو مقبول بالنسبة للجميع، هو أنه شرط تشترك أطراف العقد كلها في قبوله والخضوع له. ولكن هل يعنى هذا الشرط فقدان حرية طرف لصالح طرف

آخر؟ يجيب روسو على ذلك بالنفي، لأن هذا الشرط الذي يحقق المساواة بين الجميع، هو الذي سيضمن الحرية للجميع، وتكون هذه المساواة بديهية، لأن كل واحد يمنح نفسه بموجب العقد للجميع ولا يمنحها لأي واحد معين بالذات في هذا الجميع، ولا خارج هذا الجميع. وستكون الجماعة التي تقوم بدلالة هذا العقد الاجتماعي هي الهيئة السياسية الحاكمة التي تتكون من حاصل مجموع الأفراد المتعاقدين، وهذه الهيئة هي صاحبة السيادة، وتتمتع بإرادة هي الإرادة العامة التي هي حاصل مجموع إرادات الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة المتعاقدة وهيأتها السياسية الحاكمة. وستكون هذه الهيئة صاحبة السيادة حرة وغير مقيدة بأي التزام، وباستطاعتها بكل بساطة أن تلغى العقد، غير أن عدم وجود أي قيد على إرادة الهيئة السياسية لا يجعل خطر الاستبداد قائما، إذ لا يمكن أن نتصور أن مثل هذه الهيئة صاحبة السيادة والمجسدة للإرادة العامة، تمتلك مصلحة مناقضة لمصالح الأفراد الذين تتكون منهم، بما يمكن أن يدفعها لإلغاء العقد وممارسة الاستبداد (النوري، ٢٠١٠، صفحة ٢٧٠).

لقد تميز روسو عن باقي الكتاب بتوكيده على الإنسان البدائي النبيل، واتخذه محورا في كتاباته. ويبدو أن الكتابات والتقارير التي نتجت من الرحلات الأوربية المجتمعات العالم القديم قوت الصورة التي رسمها روسو حول بساطة وبراءة الإنسان البدائي. واتخذ روسو الجماعات البدائية في فنزويلا انموذجا لتوضيح الحياة البدائية والإنسان الطبيعي. ومن ملاحظاته التي طرحها أن الأسرة هي أقدم الجماعات الإنسانية وأقربها إلى الحالة الطبيعية للإنسان. لكنه أستدرك بقوله أن الأسرة قد تتعرض للتفتت نتيجة خروج بعض أبنائها منها واستقلالهم عنها. واعتقد أن هذه الحرية وهذا الاستقلال موجودان في طبيعة الإنسان (النوري، ٢٠١٠، صفحة ٢٣٣).

وقد أتفق روسو مع هوبز أن السلطة لا يمكن تجزئتها عندما تستند إلى العقد الاجتماعي بين المجتمع والحكومة. وأيد رأي لوك من أن السلطة تكمن في الشعب كله. لكن روسو أبدى رغبة قوية في منح الشعب سلطة وفاعلية كبيرة في الحكومة بدلا من جعل الشعب خاضعا مستسلما لها. نستخلص من كتابات روسو أنه كان يفكر بحكومة المدينة لأن معظم أفكاره يتعذر تنفيذها على مستوى الدولة الحديثة التي تضم أمة ومدنا كثيرة وعددا كبيرا نسبيا من السكان. ويبدو أن الفكرة التي اقترحها حول حق الشعب في الحكم قد استهوت كثيرا من الناس وكانت من الأسباب التي حرضت الشعب الفرنسي على الثورة ضد النظام الملكي الاستبدادي عام ١٧٨٩ وقد هاجم روسو بعض أساليب الفكر في زمنه، كما يتضح في كتابه أميل Emile، لكنه أبدى تعاطفا واتفاقا مع

مونتسكيو فى كتابه روح القوانين، خصوصا آراءه حول العقل والطبيعة. وقد تعاظم تأثير روسو الثوري على عالم الأفكار بعد موته. وقد شكا روسو من أن مواهبه وأفكاره لم تلق ما تستحق من الاهتمام ولعل ذلك راجع الى ما طبع كتاباته من أصالة كان من شأنها اثارة الجدل وعدم الاتفاق حولها (النوري، ٢٠١٠، صفحة ٢٣٤).

لقد أكّد كل من هوبس ولوك أهميّة العودة إلى الأصل. غير أنهما افترضا أصلاً خاطئاً عبر استعمال وسيلة غير ملائمة وهي العقل. ستعوض حالة الطبيعة الخالصة لدى روسو الأصل الخاطئ، وسيحل القلب محلّ العقل : " الأصل، لدى روسو، ليس نقطة انطلاق عمل ذهني، بل هي صورة نعثر عليها في منبع الوجود الواعي نفسه... حالة الطبيعة هي قبل كل شيء والقلب ملكة جديدة تعني تجربة معيشة، وتخيّل طفولي دائم ". والقلب ملكة جديدة تعني النفاذ الفوري ودون انحراف إلى حالة الطبيعة النقيّة. فحالة الطبيعة هي حصريا حالة القلب، ونقطة الأساس التي تضع المفهوم والوجود والتحديد محلّ مساءلة (التركي، ٢٠١٥، صفحة ٧٨).

يفكر روسو من خلال هذه الحالة الطبيعية النقية في عالم آخر منفصل تماما عن عالمنا، ففكره إذن فكر الانفصال والنّقاء. ولا يلوح القلب على انه ما يتجاوز العقل، وإنّما شيء منفصل ووسيلة انفصال حالة الطبيعة وأداة لتحطيم العقل. يقدّم روسو بواسطة هذا الفكر الانفصالي وبتدخل ملكة جديدة بوصفها أداة، الفصل بنية جديدة للتكوين وللأصل. هذا الأصل ليس تاريخيا بالمعنى الذي لا يكون فيه بالأساس منفصلاً. ومن هذا الانفصال ينبع تحليل الحرب لدى روسو. ليست الحرب نتيجة لفوضى حالة الطبيعة حيث يكون الإنسان بالطبيعة شريراً، بل هي نتاج صدفة ونتاج حادث. ولا يعد مسار التشويه مسترسلاً " بل هو مسار غير مترابط تشكل كل دائرة فيه حلقة منفصلة ". وحتى يتحقق الانتقال حالة إلى أخرى، ينبغي ان تتدخل العوامل الخارجية والحوادث والصدف. يمثل الحادث حركة تأسيس انطلاقاً منها يكون التفكير في المستقبل على أنه تاريخ، أمّا في حالة الطبيعة النقية يكون الإنسان " حيواناً دون الحيوان " يعيش حالة ضياع ووحدة. ليس لإنسان الطبيعة أي إحساس اجتماعي، أو نزعة اجتماعية، ولا يحمل أي استعداد للتواصل مع الآخرين مماثليه ومخالفيه. ولهذا يمكن أن نعد حالة الطبيعة النقية الدرجة الصفر للمجتمع. وقد لاحظ لوبران: "كان روسو يرمي إلى العودة للدّرجة الصفر من الاجتماعية من خلال الإحالة إلى الإنسان المبعد عن كل مظهر من مظاهر التواصل الاجتماعي (اللغة، الأسرة، الاقتصاد) وهو ما يتيح له بالنتيجة الحصول على يقين يقضي بغياب أي نوع اخر من الوجود الاجتماعي المعطى بصفته

وسيلة التحديد الوحيدة للحظة التي يصبح فيها التواصل الاجتماعي أمراً شاذا ". (التركي، ٢٠١٥، صفحة ٧٩)

كيف خرج الإنسان من هذه الحالة الأولى او الحالة الطبيعية؟ ويجيب روسو، خرج منها اتفاقاً بأن عرضت له أولا أسباب طبيعية، كالجدب والبرد القارس والقيظ المحرق، اضطرته إلى التعاون مع غيره من أبناء نوعه تعاوناً مؤقتاً كان الغرض منه الصيد براً وبحراً وتربية الحيوان لتوفير القوت. ثم اضطرتهم الفيضانات والزلازل إلى الاجتماع بصفة مستديمة، فاخترعت اللغة، وتغير السلوك، وبرز الحسد، ونشبت الخصومة. هذا الاجتماع بنوعيه، المؤقت منه والمستديم، يمثل حالة التوحش، وهى ليست بعد الحالة المدنية، لأنها خلو من القوانين، وليس فها من ردع سوى خوف الانتقام. وحدث اتفاقاً أيضاً أن استكشف الإنسان استعمال الجديد، وهو شرط الزراعة، والصناعتان شرط الحالة المدنية بما تقتضيان من تقسيم العمل والتعاون، إذ يستمد المزارعون الآلات الحديدية من صناعها ويعطونهم قوتهم. وتستتبع الزراعة تقسم الأراضي، فيزداد التفاوت ويتفاقم الخصام. ويتفق الأقوياء الأغنياء على تدعيم مكانتهم فيضعون أنظمة عامة تصونه لكل ملكه وتوطد السلام، ويذعن الفقراء الضعفاء لهذه القوانين كي يدفعوا الشر عن أنفسهم. هنا تبدأ الحالة المدنية المنظمة بالقوانين، تثبت الملكية، ويتوطد التفاوت وهكذا صار الإنسان الطيب بالطبع شريراً بالاجتماع وبما أتاحه له الاجتماع من تقدم عقلي وصناعي. وإن قيام دولة يستتبع قيام دول أخرى، فتنشب بينهما الحروب (كرم، ١٩٦٢، الصفحات ٢٠٢-٢٠٣).

وتعدّ خصائص حبّ الذات والشفقة والحرية وقابلية الكمال الخصائص الأساسية لإنسان الغابة وهي خصائص افتراضية أو ذات وجود بالقوة حسب المصطلح الأرسطي. ولا يكون هناك انتقال إلى الفعل إلا عبر حادث accident. وبه يصبح الإنسان بالفعل مشوّهاً في النّطاق الذي يتعلّم فيه عبر العمل " الخارج والداخل الأنا والآخر، الوجود والظاهر الخير والشر، السلطة والاستعباد " ، وهكذا يكتشف صراع الأضداد. ويسمي روسو هذه الحالة: " شباب العالم ". كان النّاس منتشرين في الطبيعة، وهم لا يجتمعون بمقتضى مجهود مشترك، إلا تحت وازع الحاجة، ولهذا كان هناك بناء للقرى وتقسيم للعمل ونظام العائلة. لقد تعلّم الإنسان الإنتاج، وبهذا يعوّض اقتصاد الإنتاج اقتصاد المعاش (التركي، ٢٠١٥، صفحة ٨٠).

يقول روسو : " لكن منذ اللحظة التي احتاج فيها الإنسان إلى الاستعانة بالآخر ومنذ أن أدرك أنه من المفيد بالنسبة إلى الواحد منهما إنتاج مؤونة الاثنين، اضمحلت المساواة وظهرت الملكية بينهم

واصبح العمل أمراً ضروريًا فتغيّرت الغابات الشاسعة إلى حقول زاهية ينبغي ريها بعرق البشر" . لقد بدل تدخل حادث خارجي في شباب العالم هذا حياة البشر، فبحركة تم الإعلان عن ظهور المجتمع : " تعدّ هذه الحركة الأسطورية حركة تأسيسية، فهي تكشف لنا عن الأصل المفهومي للمجتمع وما يكتسيه من ضرورة أساسية : وجود الملكية (أو الحيازة ومعرفة القانون (الذي لا يزال مشوباً باستعمال القوة والخداع لكن في إطار رغبة في اعتماد هذا القانون وهذا التحوّل " من العنف إلى الحق " الذي يصاحبه : هذا ملكي". لقد كان لظهور الزراعة والصناعة المعدنيّة ونشأة الملكية الدور الأساسي في تشويه الطبيعة والزج بالإنسانية قاطبة في حالة حرب " فالحديد والقمح بالنسبة إلى الفيلسوف هما مصدر تمدّن النّاس وضياع النّوع الإنساني". يتولّد تقسيم الارض من الفلاحة، ويتولد تقسيم العمل الاجتماعي من الصناعة المعدنية " ومنذ أن ظهرت الحاجة إلى إذابة الحديد وصناعته، كان لا بد من وجود أناس آخرين يتكفّلون بتأمين قوت هؤلاء (...) ومن زراعة الأرض نشأ بالضرورة تقسيمها ومنذ أن عرف النّاس الملكية تولّدت أولى قواعد العدل ". لقد واجه البشر في حياتهم لحظة حرجة، لحظة قاتلة لا يسودها إلا العنف : حالة الحرب. وقد ذكر التوسير " هذه اللحظة حرجة وقاتلة لأنّ مجالها هو مجال التناقض غير القابل للتجاوز في هذه الحالة بين "عوائق" تهدد حياة النّوع الإنساني من جهة و"القوى" التي كان يمكن للأفراد استخدامها في مواجهتها من جهة أخرى " . ثمّت أخطار الحرب الدائمة التي تدمر حفظ بقاء الإنسان وتبعث على نشأة الصراع الكلي. تشكل القوى "قوى فيزيائية (حياة) وقوى ذهنيّة وأخلاقية وخيرات وحرية "، يمثل هذا التناقض بين العوائق والقوى أساس حالة اغتراب الإنسان، لقد قامت ممارسات البشر بتحويل الغابة إلى أرض قابلة للزراعة وللإنتاج يستأثر بها عدد محدد من النّاس. لقد نسيت الطبيعة تماماً وتغلغلت البشرية بالضرورة في حالة الحرب، وهكذا، حدّدت ممارسة الإنسان نفسها التعامل معها والاغتراب الذي أصابها (التركي، ٢٠١٥، صفحة ٨٢).

ينبغي أن نقيم تمييزاً بين حالة الحرب وفعل الحرب. فحالة الحرب التي توجد بين البشر تشكل علاقة ثابتة وكلّية، بينما يظهر فعل الحرب على أنه استعداد لتدمير دولة العدوّ وقد تمّ اختزاله في ممارسة ما. " إن ما نسميه فعل حرب إنّما هو تصادم قوّة لقوّة وهو نتاج استعداد ثابت متبادل يبرز لتدمير دولة العدو، أو من أجل إضعافها على الأقل (...) بكل الوسائل الممكنة. هذا الاستعداد مُخْتَزَل في فعل هو الحرب بالمعنى الخالص، وبقدر ما تظل بلا نتيجة، فإنّها لا تكون سوى حالة الحرب " هكذا تطرح إشكالية الحرب ضمن منظور جديد لدى روسو، اذا ظل فعل

الحرب في لعبة العلاقات الدولية المعقدة بين القوى والدول. ينقد روسو حالة الحرب الكليّة لكلّ فرد ضدّ الكل. فمن غير الممكن في تصوّره أن يدرك أي فرد مصلحته من خلال تدمير الآخرين كليا. " من بإمكانه أن يتخيل دون أن يرتجف النّظام الأخرق للحرب الطبيعية لأي فرد ضد الكل؟ أي حيوان غريب هذا الذي يعتقد أنّ خيره مرتبط بتحطيم كلّي لنوعه ؟ " . ليست هذه النظرية الفاسدة بالنسبة إلى روسو سوى تقرير الأمر الواقع، أي النظام القائم أو النّظام الذي نتمنّى وجوده: " ومع ذلك، فهذا إلى أي مدى بلغت الرّغبة أو الهياج لإرساء استبداد وطاعة عمياء كي يفضيا إلى واحد من أجمل المواهب التي وجدت " . لقد أرجع هوبز أسباب الحرب إلى التفاخر والتنافس والحذر، وباختصار، فإنه يعتبر الجدارة السبب الأساس للحرب. بينما يرى روسو أن هذه الحرب ليس بإمكانها أن توجد في حالة الطبيعة وإنما في الحالة الاجتماعية والحالة المشوّهة للطبيعة. وبالفعل، فإذا قبلنا بحرب الفرد ضدّ الكلّ فإنّه لن يبقى سوى فرد واحد وفي هذه الحالة كيف باستطاعته العيش؟ و"من باستطاعته –حسب روسو– أن يشهد على إمبراطوريته في رحاب العزلة التي لن يسكنها بتاتا؟. (التركي، ٢٠١٥، صفحة ٨٣)

ولعل التغيير الأكثر أهمية في مناخ الرأي العام كان الشكوك المتزايدة في العقيدة القديمة للحرب الوقائية (التي لم يكن هوبز وحده من بين المسلَّمين بها انما أيضاً مونتسكيو وفيرجسون) والاقتناع المتزايد بأن "الحروب العادلة" لابد وأن تقتصر على الدفاع عن النفس، وهو ما عرَّفه هوبز بطريقة أكثر تقييداً من الماضي. أما فيما يتصل بوظائف الحرب، فيبدو أن مدرسة التربية لم تضف الكثير. فقد كان انصار هوبز مهتمين بوظائف الحرب، في حين كان انصار روسو مهتمين أكثر بأصول الحرب. كما كان انصار هوبز يتساءلون عن أفضل السبل لممارسة الحرب، بينما كان انصار روسو يتساءلون عن أفضل السبل لتجنبها. وحاول انصار هوبز تفسير مكانة الحرب في المجتمع؛ أما انصار روسو فيريدون في الغالب أن ينددوا بها. ولكننا نلاحظ أن معسكري الطبيعة والتربية لم يكونا منقسمين بشكل حاد في القرن الثامن عشر. فقد يتصور الناس أن الحرب أمر طبيعي بالنسبة للبشرية، ولكنه شر، ويأمل في الحد من ويلاتها؛ وقد يتصوروا أنها خلق مصطنع للدول، ولكنها في الوقت نفسه أداة مفيدة.

ثالثا: فلسفة جون لوك السياسية ومفهوم المجتمع المدني.

أحد كبار ممثلي النزعة التجريبية الإنجليزية، جاء بعد هوبس وبيكون وكان أعمق منهما في توضيح المذهب الحسي والدفاع عنه، فاستحق أن يدعى زعيمه في العصر الحديث، يعتبر لوك أحد

مؤسسي المذهب الحري الجديد، فهو يعارض هوبس في تصويره الإنسان قوة غاشمة، وتصوره حال الطبيعة حال توحش يسود فيها قانون الأقوى، ويذهب إلى أن للإنسان حقوقًا مطلقة لا يخلقها المجتمع، وأن حالة الطبيعة تقوم في الحرية، أي إن العلاقة الطبيعية بين الناس علاقة كائن حر بكائن حر تؤدي إلى المساواة (كرم، ١٩٦٢، صفحة ١٤١).

ويتصور لوك، مثل هوبز، تأسيس الدولة المدنية بأنه كان نتيجة عقد اجتماعي، ويستشهد لوك، كدليل، بروايات الرحالة، ويستخدم على سبيل المماثلة المعرفة الضمنية والمعاهدات المؤقتة التي تبرمها الحكومات المستقلة بعضها مع بعض فى حالة الطبيعة، التي لا توجد فيها سلطة معينة للإنصاف وإرجاع الحقوق يكون من حق كل إنسان وواجبه أن يحمى نفسه بقدر ما يستطيع، وأن يوقع العقوبة على الأشرار. ويستشهد لوك بدليل آخر وهو ما تفعله الحكومات الحديثة عندما تعاقب أجنبيا من بلد آخر، ويعتقد أن الحكام المستبدين في الأرض حيثما لا يكون هناك دستور يمارسون باستمرار هذا الحق على رعاياهم، وكثيرا ما أسيء استخدامه إلى حد أن تكون رعاياهم أسوأ حالا مما لو كانوا في حالة الطبيعة. وطالما أنه لا يمكن – فى حالة الطبيعة – إرجاع الحقوق إلا عن طريق القوة التي تمارس وفقا لحكم الأفراد التعسفي عندما يشعرون بأن ثمة ضرراً لحق بهم، فإنه يكون هناك خطر مستمر من القتال والحروب والفوضى، ولكي يتجنب الناس كل ذلك، ويحصلوا على أمن أكبر، يشكلون عن طريق عقود إرادية جماعات سياسية، ثم تنشأ الجماعات بعد ذلك حكومات (رايت، ٢٠١٠، الصفحات ١٧٦-١٧٧).

وعند إبرام عقد اجتماعي ينقل كل فرد، قوته لا إلى الملك (كما افترض هويز أن ذلك صحيح بالنسبة لانجلترا)، بل إلى الجماعة، لكي يصبح قرار الجماعة بعد ذلك قانونًا. ولأن إيجاد صورة معينة من الحكومة عن طريق جماعة يتبع التنظيم السابق للجماعة نفسها، فمن الممكن بالنسبة لجماعة أن تغير الحكومة دون أن تحل نفسها. وبدت ثورة ١٦٨٨ ، بدون شك، " للوك " ولقرائه دليلا على ذلك، إذ تم طرد ملك ثم اعتلى العرش ملك آخر بارتباك قليل للغاية في البلد. واختلفت الوقائع تماماً عما كانت عليه أثناء سقوط حكم شارل الأول، عندما استنتج هوبز أن ثمة تغيراً ثورياً لشكل الحكومة استلزم بالضرورة العودة إلى فوضى نظام الطبيعة. وفي ظل العيش في عصر تجارى والكتابة دفاعاً عن ثورة كان هدفها أن تحمى حقوق رجال الأعمال وأصحاب الأملاك الآخرين ضد التدخل الملكي، اعتقد لوك أن الحقوق الطبيعية الرئيسية التي يحافظ عليها المجتمع وتبرر مخالفتها عن طريق الحكومة قيام ثورة، هي حق الحياة والحرية والملكية التى تعد حقوقًا

ضرورية لاستمرار الحياة العادية. ومن أجل تحقيق الأمن للناس، يجب تقسيم سلطات الحكم إلى سلطة تشريعية، وسلطة تنفيذية، وإذا نشأت منازعات بين السلطتين، يكون لدى الشعب – الذي يكون وكيلا عن السلطتين . الحق في أن يتخذ القرار النهائي. وإذا رفضت الحكومة أن تستجيب لرغبات الشعب، يكون للشعب . بعد أن احتج من قبل دون فائدة بكل طريقة سلمية ممكنة . أن يلجأ إلى القوة، و" يلجأ إلى السماء " لكي تكفل عدالة قضيتهم (رايت، ٢٠١٠، صفحة ١٧٧).

وقد تم صياغة إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ وفقا لفلسفة لوك. ففى هذا الإعلان يروى أهل المستعمرات الثائرون انتهاكات متكررة لحقوقهم الطبيعية ارتكبتها حكومة انجلترا التي احتجوا ضدها دون جدوى، وأعلنوا أنهم مضطرون الآن إلى الاستعانة بقوة السلاح وتأسيس حكومة مستقلة. إنهم يلجئون إلى السماء يطلبون رضا عالم منصف. ويكشف الدستور الأمريكي عام ١٧٨٧ عن تأثير لوك أيضا. فهو ميثاق الشعب، وهو يعهد بسلطات محدودة إلى الحكومة الفيدرالية، وفصل بوضوح السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية بعضها عن بعض ونتيجة لتأثير مونتسكيو، الذي أُعتقد أن فلسفته السياسية تطوير لفلسفة لوك فى هذا الموضوع بالتفصيل، استقلت السلطة القضائية عن السلطتين التشريعية والتنفيذية. ويؤسس لوك أصل حقوق الملكية فى استغلال الأرض لأول مرة وهو استغلال ممزوج بالعمل. ففى الحالات البدائية – عندما كانت هناك أرض وفيرة . اكتسب الإنسان الذي يحيط قطعة من الأرض بسور ويزرعها حقا أخلاقيًا في الأرض وأيضا في إنتاجها. (كانت القوانين الأمريكية المحلية التي اكتسب وفقًا لها كثير من المواطنين حقوقا في ملكية الأرض التى شغلوها واستصلحوها، تطبيقا لنظرية لوك). ويلاحظ لوك أنه باختراع النقود أصبح الناس قادرين على تجميع الثروة التي لم يكونوا فى حاجة إلى استهلاكها بصورة مباشرة. لقد كان لوك واحداً من رواد علم الاقتصاد السياسي، وكتب رسالة عن نتائج تخفيض الربح ورفع قيمة المال. وقد أدى رأيه الذي يقول إن رأس المال نتاج العمل، إلى نظريات اجتماعية في القرن التاسع عشر لم يكن لوك يستحسنها على الإطلاق (رايت، ٢٠١٠، صفحة ١٧٨).

وأما الحرية الشخصية فمعناها أن ليس هناك سيادة طبيعية لأحد على آخر، إن سلطة الأب أعطيت له لكي يربي الابن ويجعل منه إنسانًا أي كائنًا حرًّا، فهي واجب طبيعي أكثر منها سلطة، وهي مؤقتة ولا تشبه في شيء سلطة السيد على العبد، وتفقد بسوء الاستعمال والتقصير، والسلطة السياسية تراضٍ مشترك وعقد إرادي؛ وذلك لأن أعضاء المجتمع متساوون عقلًا وحرية، بخلاف الحال في علاقة الآباء والأبناء، فأساس الاجتماع الحرية والغرض من العقد الاجتماعي صيانة

الحقوق الطبيعية، لا محوها لمصلحة الحاكم كما يزعم هوبس، فلا يستطيع الأعضاء أن ينزلوا إلا عمَّا يتنافر من حقوقهم مع حال الاجتماع، وذلك هو حق الاقتصاص، فالسلطة المدنية قضائية في جوهرها؛ لذا لم تكن السلطة المطلقة الغاشمة مشروعة، خلافًا لما يدعي هوبس، الحق أنها ليست شكلًا من أشكال الحكومة المدنية، وإنما هي محض استعباد، والملك المستبد خائن للعهد، والشعب في حل من خلع نيره. ويجب الفصل بين الدولة والكنيسة، إن هدف الدولة الحياة الأرضية، وهدف الكنيسة الحياة السماوية، نحن إذ نولد ملك الوطن لا ملك الكنيسة، ولا ندخل فيها إلا طوعًا، ولما كان المجتمع المدني غير قائم على مصالح الكنيسة، فليس للدولة أن تراعي العقيدة الدينية في التشريع، ولا محل للقول بدولة مسيحية، مبدأ الدولة أن لكل أن يستمتع بجميع ما يعترف به للغير من حقوق، فيجب على الدولة أن تجيز جميع أنواع العبادة الخارجية، وتدع الكنيسة تحكم نفسها بنفسها فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة وفقًا للقوانين العامة، فتسود الحرية جميع نواحي المجتمع المدني (كرم، ١٩٦٢، صفحة ١٥٢).

بعد استعراض اراء فلاسفة العقد الاجتماعي بالحرب، وتصوراتهم الفلسفية عن مالآلات الجنس البشري، يرى البحث بان هناك ضرورة لاستعراض اراء الفيلسوف هربرت سبنسر ونظريته في البقاء للأصلح، لأنها ترتبط بشكل غير مباشر بما لحقها من نظريات او فلسفات حاولت فهم اقدام البشر على الحرب، وطبيعية الحال فان هذا التناول تعدد بتعدد وجهات النظر او الفلسفة نفسها.

رابعا: الحرب والتطور البشري عند هربرت سبنسر.

هربرت سبنسر Spencer(١٨٢٠ – ١٩٠٣) هو أول مفكر حديث نظر إلى المغزى الفلسفي للتطور نظرة شاملة، وسعى إلى إيجاد مركب للمعرفة العلمية. لقد قدم الإبلاس La Place في بداية القرن التاسع عشر النظرية السديمية، التي وفقا لها تطورت الأجرام السماوية إلى حالتها الراهنة من غازات أولية: وهذا تطور في ميدان علم الفلك. وبين «تشارلز ليل» C. Lyell في الثلاثينات أنه بافتراض أن الأرض قد وجدت منذ زمن طويل كاف، فإنه يمكن تفسير كل الخصائص المتنوعة الموجودة الآن بأنها نتيجة عمليات لا تزال تعمل وتخضع للملاحظة: وهذا تطور فى ميدان علم الجيولوجيا. وأثبت "لامارك" أن الأنواع المختلفة من النباتات والحيوانات لها أصل مشترك، وأنه يمكن تفسير الاختلافات الموجودة بينها عن طريق قوانين معينة للتطور وهذا تطور في ميدان علم البيولوجيا. ورفضت آراء "لامارك" إبان النصف الأول من القرن التاسع عشر، بيد أن هربرت سبنسر قبل معظمها. وبين "فون باير" أن الجنين ينتقل من حالة تجانس غامضة إلى

تمايز للأعضاء المتنوعة عند الولادة . وهي عملية كان يرى سبنسر أنها تماثل تطور الأنواع المختلفة. واعتقد سبنسر عندما قارن نتائج تلك العلوم المختلفة، أنه يمكن أن نصل إلى تعريف للتطور ينطبق بصورة عامة على تطور النجوم والكواكب، وقشرة الأرض، والنباتات والحيوانات والذهن البشرى والمجتمع البشرى في جميع النواحي بما في ذلك الحكومة، والاقتصاد والفن، واللغة، والدين، والأخلاق.

ونشر تشارلز دارون فى عام ١٨٥٩ كتابه (أصل الأنواع). وكان دليل دارون حاسما ومقنعاً، مع إنه كان يرتبط بظروف البيئة – حتى إنه أصبح في سنوات قليلة كل عالم شهير مقتنعاً من الناحية العملية بأن كل النباتات والحيوانات لها أصل مشترك، وأنه يجب رفض النظريات القديمة التي ترى عدم إمكان تغير الأنواع، وخلقها المباشر على الرغم من أن تفسير دارون الخاص للطريقة التي يحدث فيها هذا التطور – عن طريق الانتخاب الطبيعي – ظل بالتالي منذ ذلك الوقت موضع جدال. ولم يمنع تفضيل سبنسر البعض من تفسيرات لا مارك من أن يصبح فى الحال مؤيداً متحمساً لدارون. وتجرأ في عام ١٨٦٠ على أن يعلن عن تخطيطه لفلسفة تركيبية للتطور، ينطبق فيها هذا التصور على جميع العلوم. ومنذ عام ١٨٦٠ حتى عام ١٨٩٣ استمر يعمل بصورة متواصلة في هذا المشروع؛ فكتب مجلدات منفصلة عن الميتافيزيقا والبيولوجيا، وعلم الاجتماع والأخلاق. ونشر كتابه «مبادىء علم النفس في عام ١٨٥٥ ، الذي قام بمراجعته وإدخاله ضمن السلسلة وعلى الرغم من أن بعض السنوات قد انقضت قبل أن تكتسب فلسفة سبنسر التركيبية تقديرًا كبيرًا ، فقد أصبحت الآن مشهورة، وقرأ الناس أعماله على نطاق واسع إبان سنواته الأخيرة، ونظر إليه كثيرون على أنه أعظم فيلسوف في العالم (رايت، ٢٠١٠، الصفحات ٤٣٥-٤٣٦).

قانون التطور:

إن صياغة سبنسر للتطور هو تفسيره للمادة والحركة بأنهما صورتان للقوة في تركيبات مختلفة. وينطبق قانون التطور على جميع الظواهر في جميع العلوم. وعندما يقرر سبنسر ذلك، فإنه يعرض فلسفة من حيث إنها معرفة موحدة تماماً. ويصف القانون الأول للتطور – القانون الوحيد الفعال فى حالات التطور البسيط. عملية التطور بأنها عملية من عمليات التماسك المتزايد للمادة أو تكاملها، وبأنها ما يحفظ. الحركة فى نسق ما. فحيثما يحدث تطور، يكون هناك تجمع معا، وتركيب لعناصر كانت متناثرة من قبل بصورة كبيرة. ومثال بسيط للغاية على ذلك هو السحابة

التي تتكون في السماء، أو كومة من الرمل تتجمع على شاطئ البحر. فهذه وتلك هي مجرد تجمعات، لا يشملها القانون الثاني وهناك حالات أكثر تركيبا، يكون القانون الثاني فعالا فيها بحق غير أنه يمكن أن نتجاهلها الآن، وتلك الحالات لابد أن نقوم بعرضها فيما بعد. وبناء على النظرية السديمية التي يقبلها «سبنسر»، كان نظامنا الشمسي ذات يوم سديما منتشراً. وأصبحت مادته الآن أكثر تكاملا فى الشمس والكواكب المختلفة. فكل كوكب يمر خلال المراحل المتتابعة للدائرة السديمية، والكرة الغازية والكرة السائلة وكرة صلبة من الخارج . وهى مراحل تصبح فيها المادة أكثر تجمعا. وتظل الشمس تفقد الحركة من حيث إنها حرارة مشعة، وتصبح كتلة أكثر صلابة. وتكشف الجيولوجيا عن عملية تكامل فى تاريخ الأرض. ففى زمن ما بردت كتلة متوهجة بالتدريج، وأصبح ثلاثة أخماس سطحها الذي يغطيه بخار متكثف ماء. وأصبحت قشرة الأرض صلبة، وسميكة، وأصبحت الآن صلبة حتى إن سطحها لا يتأثر بالزلزال إلا بصورة ضئيلة (رايت، ٢٠١٠، صفحة ٤٣٧).

وإذا انتقلنا إلى البيولوجيا، فإننا نلاحظ أن كل نبات وكل حيوان ينمو بأن يجمع في ذاته عناصر كانت مبعثرة من قبل في الأرض والهواء. ويوضح علم الأجنة عملية التكامل: مثلا، كان في البداية وعاء كبيراً ينبض بالدم، ثم انقسم انقساما داخليا، أصبح أربع حجرات وتجمعت الخلايا الصفراوية التي كانت توجد في وقت ما في جدار الأمعاء، ثم افترقت عن الأمعاء وتجمدت في عضو. ويستمر التكامل بعد الميلاد؛ فتصلب الهيكل العظمى، وأصبحت أجزاء الجمجمة أكثر اتحاداً وصلابة؛ ولا تصبح أجزاء العمود الفقرى مرتبطة تماما بالمراكز الفقارية إلا في سن ثلاثين سنة. ويحدث اتحاد لحركات البنية الجسدية وتتخذ وضعها ويكشف علم الأجناس عن عمليات مشابهة من التكامل. فالديدان والحيوانات كثيرة الأرجل لها عدد كبير من الفصوص، تبلغ المئات في بعض الحالات. وقد ارتبطت هذه الفصوص بالتدريج فى القشريات والحشرات، والعناكب، في اثنين وعشرين، وثلاثة عشر فصاً أو أقل من ذلك. وبلغ تكامل الجسم ككل ذروته في السرطان والعنكبوت وحدثت تكاملات مماثلة في الفقاريات، ففى السمك لم يندمج العمود الفقري، في حين أنه اندمج فى فقاريات كثيرة مثل الثدييات والطيور، واندمج بصورة أكبر في القردة والإنسان. وتلازم تكاملات مناظرة من حركات هذه الاندماجات في البنية. ويتضح قانون التماسك المتزايد فى العلاقات بين الأفراد التي تكون من نفس النوع، في الحالات التي تستخدم في الصيد الجماعي، ويكون لها حراس، ويحكمها قادة. وهناك أيضا اعتماد متزايد لأنواع مختلفة على بعضها البعض فالحيوانات

تعتمد في وجودها بصورة مباشرة أو غير مباشرة على النباتات بينما تستخدم النباتات ثاني أكسيد الكربون الذي تخرجه الحيوانات، ويعتمد بعض منها على تلقيح الحشرات في تكاثرها. ولقد بين "دارون" أن النباتات والحيوانات فى منطقة معينة تكون تجمعا يتكامل حتى إن أنواعاً كثيرة تفنى وتتلاشى إذا وضعت بين نباتات وحيوانات منطقة أخرى. وإذا انتقلنا الآن إلى علم الاجتماع، فإننا نجد أن المجتمعات غير المتحضرة كانت في الغالب عبارة عن أسر تنتقل من مكان إلى آخر، ثم اتحدت لتكون قبائل. وخضعت القبائل الضعيفة لجيران أقوياء، وتكونت مجتمعات أكثر دواما. وهناك ميل في البلدان الأوربية لتكوين تحالفات، وقد يتطور ذلك في نهاية الأمر إلى عالم اتحادات فيدرالية (رايت، ٢٠١٠، صفحة ٤٣٢).

كما تميل الصناعات والأعمال التجارية إلى التكامل في مناطق من المدن أو الريف، ويلازم هذه الاتحادات، بالتأكيد، تكاملات أنشطة أو حركات. وتحدث تكاملات مماثلة في اللغة. فالكلمات كثيرة المقاطع ترتد إلى كلمات قليلة المقاطع. فالكلمة الأنجلو سكسونية : Steorra"" أصبحت نجم Star""، وأصبحت كلمة Monar"" قمر Moon""، وأصبحت كلمة "nama" اسم "name". وأصبحت عبارة " كان الله معك" الآن " إلى اللقاء". وليس لأنواع الكلام الأدنى، أعنى الأقل تطورا، سوى أسماء وأفعال بدون تصريف، أما الأنواع العليا فهي تُصرف، وتظهر أجزاء أخرى من الكلام. وقد انهارت التصريفات بدورها في اللغات العليا، مثل اللغة الإنجليزية، وتطورت أنواع جديدة من الكلمات لتعبر عن علاقات لفظية. ويكشف تاريخ العلوم عن تكاملات نزداد، كلما وضعت حقائق أكثر وأكثر تحت قوانين عامة. وتبين الفنون الصناعية تقدماً لتكامل فى تطور من أدوات صغيرة وبسيطة إلى آلات كبيرة ومعقدة. وثمة تقدم ملحوظ في وحدة التركيب، وفي خضوع الأجزاء للكل في التقدم من الزخارف على الجدران عند المصريين القدماء والآشوريين إلى تصوير تاريخي حديث. ونجد عملية مماثلة من التكامل. في تاريخ الموسيقى، من الإيقاعات البسيطة عند الهمج إلى النغمة أو القطعة الموسيقية الحديثة التي يضاف فيها عدد كبير من الآلات الموسيقية إلى أجزاء الصوت المختلفة. ويبين تطور الرواية الحديثة، في مقابل حكايات القصاصين القدماء تكاملا. ولذلك، فإن القانون الأول للتطور هو الانتقال من الصورة الأقل تماسكا إلى الصورة الأكثر تكاملا، نتيجة لتشتت حركة ما، وتكامل المادة وبقاء الحركة.

وهناك قانونان ثانويان لهما تأثيرهما أيضاً كما أن هناك تطوراً مركبا، في بعض حالات التطور، بجانب القانون الأساسي. وتتضمن معظم الأمثلة التي قدمناها من قبل تطوراً مركباً بطريقتين هما:

بالنسبة للمادة والحركة كلما أصبحتا أكثر تكاملا، فإنهما تصبحان أيضاً : (١) . أكثر اختلافًا وتنافراً ، (٢) . أكثر تحديدا في التنظيم. ودعنا نلاحظ في البداية أمثلة لعدم التجانس المتزايد. في علم الفلك، تمايزت السديميات الأصلية وأصبحت شمساً، وكواكب، وأقماراً، تختلف في الحجم، والثقل ودرجة الحرارة، ميل المدارات، والمحاور، والجاذبية النوعية. وفي علم الجيولوجيا، تمايزت الأرض التي كانت في البداية كتلة متوهجة ومتجانسة نسبيا – وأصبحت ماء، وهواء والقشرة الأرضية بجبالها المتنوعة، ووديانها، وسهولها، وطقوسها. بدأ كل نبات، وكل حيوان تطوره الجنيني كخلية وحيدة، متجانسة نسبياً، ثم تطور منها تنوع عظيم من خلايا وأعضاء. ويبين التاريخ العام لتطور النباتات والحيوانات أن الأنواع الأكثر تجانساً لها أسلافها في صور أكثر بساطة وأكثر تجانساً؛ ويوجد أقصى تقابل في هذا التاريخ عندما نقارن بين الأميبيا والإنسان.

ويعتقد سبنسر أنه في مرحلة مبكرة من تطور المجتمع، كان التمايز الوحيد في الوظائف يقوم على أساس الجنس فكل رجل كان صيادا، ومحارباً، بينما انشغلت كل امرأة بنفس الأعمال المنزلية. أما في الوقت الحاضر، فقد تطور الرئيس؛ ففي البداية تمايز كل من الملك والكاهن بينما تمايزت الدولة والكنيسة بعد ذلك، كل بحشد من المهام المختلفة. والتاريخ الكلى لتقسيم العمل هو مثال يوضح التجانس المتزايد. فثمة تنوعات متوازية في الوظائف والأنشطة تسير جنبا إلى جنب مع التنوعات الموجودة في البني الاجتماعية. وفي تاريخ اللغة يبين ظهور الأجزاء المختلفة للكلام، وكثرة اللغات، وأخيراً تطور الحروف الأبجدية وتطور اللغة المطبوعة من صور بدائية وحروف هيروغليفية هذا التنافر المتزايد. وفي تاريخ الفن، تطورت من زخارف الجدران الآشورية المبكرة، في البداية، نقوش ضئيلة البروز، كما هي الحال فى المعابد اليونانية، ثم بعد ذلك تماثيل مصورة، وتطور مؤخراً التمييز التام للتصوير من النحت؛ وبينما أُستخدم التصوير والنحت أصلا من أجل أغراض دينية، فإنهما يعبران الآن عن تنوع كبير من اهتمامات ويفترضان ما، على الرغم من تنوعا عظيما في الأشكال. ولا يكفى أن نقول إن التطور هو عملية تسير من اللاتماسك إلى التكامل، ومن التجانس إلى التنافر أو عدم التجانس وقد تصف تلك العمليات وحدها المراحل الأولى في تقدم مرض محلى فى الكائن الحى أو البدايات فى انهيار مجتمع . أنها خطوات بالفعل فى اتجاه الانحلال والتفكك ولابد من إضافة قانون ثانوى آخر، لكي يتم تطور مركب حقيقي؛ وهو أن التطور تحديد، وتقدم من الفوضى إلى النظام من اللا محدد نسبيا إلى الأكثر تحديدا. إن التطور الحقيقي يبين زيادة فى الوضوح الذي تنفصل به الأجزاء بعضها عن بعض. وتنطبق هنا نفس الأمثلة

التوضيحية؛ فتطور المجموعة الشمسية هو تقدم إلى بني محددة لشكل دائم، تتحرك بانتظام في مداراتها. وتمايزت الأرض إلى مناطق جغرافية محددة ومتميزة وتطور الجنين هو تقدم في تحديد البني والوظائف. وللحيوانات وحيدة الخلية أشكال غير محددة وحركات غير منتظمة، في حين أن أشكالا أعلى في الدرجة تكون أكثر تحديداً. ويتطور المجتمع إلى طبقات محددة . وهى الملوك، ورجال الدين، والنبلاء، والعوام، والعبيد – وتكتسب كلمات لغة ما معانى أكثر تحديداً. وأصبحت الأدوات والآلات أكثر تحديداً في البنية والتصنيع. وحل تحديد أعمال الفن الحديثة محل صنوف التصوير والنحت الفجة التي كانت موجودة في الحضارة المبكرة.

إن التطور هو انتقال مما هو غير متماسك ومتجانس؛ وغير متعين نسبيا إلى ما هو متماسك، ومتنافر ومحدد، ومتعين نسبيا. ولا وجود لمطلق في نهاية العملية. وفضلا عن ذلك فإن أى حالة من حالات التطور هى حالة ظاهرة محددة فقط، ويكون لها باستمرار بداية ونهاية في كل من المكان والزمان. ونحن على استعداد الآن لتقديم صيغة كاملة للتطور عند «سبنسر» هي: " التطور هو تكامل المادة ويصاحبه تشتت ملازم للحركة؛ أعنى أنه أثناء التطور تنتقل حالة التجانس غير المتماسك وغير المتعين نسبيا إلى حالة التنافر المحدد والمتماسك نسبيًا، وتخضع الحركة الباقية أثناءه لتحول مماثل".

ولا تستمر عملية تطور وحيدة إلى الأبد. إذ يتم الوصول أجلا أو عاجلا إلى مرحلة توازن تتوقف فيها عملية التطور. فنظامنا الشمسي هو الآن في توازن متحرك؛ إذ أن الكواكب تتحرك بانتظام في مجراها، وتتكمش الشمس، وتبعث كمية منتظمة من الحرارة. هذه الحالة لعصور طويلة، لكنها سوف تصل إلى نهاية. فالحرارة في ستنفد، والكواكب ستتصادم، ويبدأ الانحلال والفناء، ويعود نظامنا الشمسي الحالي إلى الحالة السديمية الأولى والكائن البشرى الناضج هو مثال آخر لتوازن متحرك طالما أن تلف الأنسجة وإصلاحها متعادلان؛ لكن عندما لا تكون هناك محافظة على التوازن بسبب المرض أو تقدم السن يبدأ الانحلال والدمار ويكتمل بسرعة عند الموت. وفى أي مجتمع لا يأتي انهياره سريعا من الخارج، فانه يصل إلى توازن يكون فيه معدل المواليد ومعدل الوفيات وعوامل أخرى مهمة معادلة؛ لكن الانحلال أو التفكك سيكون بعد ذلك أمراً لا مفر منه إن عملية الانحلال هي عكس عملية التطور: فهي حالة من التجانس المتزايد واللاتماسك، واللاتعين. هل الانحلال الكلى يواجه في النهاية كل الأشياء ؟ كلا، وسيقول سبنسر ربما لا. فعندما يكون نظامنا الشمسي في حالة انحلال فإن أنظمة فلكية أخرى سيطرأ عليها التطور، تماماً كما هي

الحال الآن عندما يكون نظامنا فى حالة توازن، فإن أنظمة أخرى تكون في مراحل متعددة من التطور، أو الانحلال أو تكون أيضا في توازن. فمن الممكن أن يستمر التطور والانحلال إلى الأبد. إن التطور والانحلال لا ينطبقان إلا على ظواهر متناهية فقط، أعنى أنهما ينطبقان على أنظمة شمسية، وكواكب، وكائنات حية، و مجتمعات، إلخ . هل الكون ككل يتطور؟ من المستحيل الإجابة عن هذا السؤال، فكل ما نعرفه هو أننا نجد باستمرار في مواجهتنا إحساسات بالقوة، وعندما نفحص الموضوعات التي تظهر في تجربتنا، فأننا نجد أنها تخضع كلها لقانوني التطور والانحلال. أما المطلق، وما لا يمكن معرفته فاننا لا نستطيع أن نقول عنهما شيئًا (رايت، ٢٠١٠، صفحة ٤٤٦).

وبالنسبة لحساب هربرت سبنسر، يتكشف التطور الاجتماعي من خلال أربع مراحل عالمية هي:

١. المجتمعات "البدائية" التي تتميز بالتعاون السياسي العرضي (غير الرسمي).

٢. المجتمعات "المحاربة المتشددة" التي تحتمي بالسلطة السياسية الهرمية الصارمة.

٣. المجتمعات "الصناعية" حيث تنهار الهيمنة السياسية المركزية، مما يفسح المجال للأسواق المنظمة بشكل محدود.

٤. وشكل تلقائي، "ذات التنظيم"، سوق اليوتوبيا التي تتلاشى فيها سلطة الحكومة.

يؤدي الاكتظاظ السكاني الذي يسبب صراعات عنيفة بين الفئات الاجتماعية إلى تغذية دورة الاندماج والانقلاب التي لا يوجد مجتمع محصن ضدها. وبتعبير أدق، كلما ازداد عدد مجموعات القرابة الجنينية، "أصبحوا مترابطي في كل مكان بطريقة بعضهم البعض". وكلما احتشدت هذه المجتمعات البدائية مع بعضها البعض، كلما أصبحت أكثر عنفاً ومحاربة على المستوى الخارجي. يتطلب النجاح في الحرب قدراً أعظم من التضامن والتماسك على الصعيد السياسي والقسري. تدخل الحرب المستمرة وتضفي الطابع الرسمي على السيطرة السياسية، مما يقضي على المجتمعات التي تفشل في التوحد بشكل كاف. تتشكل العشائر في أمم ويصبح رؤساء القبائل ملوكًا. وبينما تقوم المجتمعات الناجحة عسكريًا بإخضاع واستيعاب منافسيها، تميل أيضا إلى الاستقرار و"التركيب" و"إعادة التجميع"، مما يحفز تقسيم العمل والتجارة. يحول تقسيم العمل وانتشار التبادل التعاقدي المجتمعات "المحاربة" الناجحة والمستقرة إلى مجتمعات "صناعية منظمة سلبيا" تمنح الحرية الفردية والحقوق الأساسية حيث تتراجع الدولة عن حماية المواطنين من القوة والاحتيال في الداخل والاعتداء من الخارج. ولكن هناك أمور أخرى مثل أن المجتمع الذي تتمتع فيه الحياة والحرية والملكية

بالأمان، والذي ترى فية كافة المصالح بشكل عادل لابد أن يزدهر أكثر من مجتمع لا يتمتع بالمساواة؛ وبالتالي، بين المجتمعات الصناعية المتنافسة، لابد من أن يزدهر أكثر من مجتمع لا يتمتع بالمساواة ؛ وبالتالي، بين المجتمعات الصناعية المتنافسة، لابد من الاستعاضة تدريجياً عن تلك التي لا يتم فيها الحفاظ على الحقوق الشخصية بشكل كامل، بتلك التي يتم الحفاظ عليها بشكل كامل ومصان". (سبنسر، ٢٠٢١، صفحة ١٠)

والمجتمعات التي يتم فيها الحفاظ على الحقوق بشكل كامل سوف تتحد معًا في الوقت المناسب في توازن سلمي دائم التوسع. وكما لوحظ سابقاً، فإن التوازن يكون دائما غير مستقر، مما يؤدي إلى خطر الانحلال والتراجع. في الواقع، كان هربرت سبنسر بنهاية حياته أقل تفاؤلا بشأن المجتمعات الصناعية التي تتجنب الحرب، وعلى الرغم من تشاؤمه المتزايد فيما يتصل بالتقدم الليبرالي والوفاق الدولي، إلا أن المدى الذي بلغه وضع التنظير المعياري في علم نظريات سبنسر الاجتماعية واضح وملموس (سبنسر، ٢٠٢١، صفحة ١٢).

على العموم طرح هربرت سبنسر فكرة مفادها: إن الضغوط السكانية المالثوسية المستمرة تنتج منافسة متكررة بين المجتمعات، والحرب هي الحكم النهائي والعامل الرئيسي في عملية التطور، والتطور يعني التقدم بمعنى التحسين. "منذ البداية كان غزو شعب على شعب آخر، في الأساس، غزو الإنسان الاجتماعي على الإنسان المعادي للمجتمع؛ أو، بالمعنى الدقيق للكلمة، غزو الأكثر تكيفًا على الأقل تكيفًا (سبنسر، ٢٠٢١، صفحة ١٣). وسرعان ما صاغ العبارة المشحونة بالقيم "بقاء الأصلح" لوصف هذه العملية. وفي كتابات لاحقة استكشف الطرق العديدة التي أدت بها الحرب إلى التقدم: فقد حسنت الحرب من جودة النوع من خلال القضاء على غير الأصلح والتكاثر الانتقائي للذكاء والشجاعة؛ وعززت عادات التعاون، مما جعل الحياة المتحضرة ممكنة؛ وأجبرت على تطور مجتمعات أكبر وأكثر تعقيدًا. "في كل مكان تنشأ الحروب بين المجتمعات بنى حكومية، وهي أسباب لكل التحسينات في تلك البنى التي تزيد من كفاءة العمل المؤسسي ضد المجتمعات التي تضر بالبيئة. لقد كان سبنسر في واقع الأمر خصماً للعسكريين والإمبرياليين في عصره. لقد احتفظ بنظرة التنوير المتفائلة للتاريخ باعتباره تقدماً عقلانياً أحادي الخط وكان على يقين من أن هذا التقدم قاد من مرحلة "الأنانية egoistic" لـ"الإنسان الأصلي" إلى مرحلة "الإيثار altruistic" للحضارة (Spencer, 1951, p. ٤٥١).

ثبت المصادر

A. Ferguson. (1971). *Essay on the History of Civil Society.* New York: Roteldge.

Herbert Spencer. (1951). *Social Statics.* London: rotledge.

عبد الرضا الطعان، و آخرون. (٢٠٢٢). موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ج٣. العراق: دار العراقية للنشر والتوزيع.

فتحي التركي. (٢٠١٥). الفلاسفة والحرب. لبنان: دار الروافد الثقافية.

قيس النوري. (٢٠١٠). رحلة الفكرؤ الاجتماعي. بيروت: دار ومكتبة البصائر.

هربرت سبنسر. (٢٠٢١). موسوعة ستانفورد للفلسفة. المملكة العربية السعودية: مجلة حكمة.

ويلم كيلي رايت. (٢٠١٠). تاريخ الفلسفة الحديثة. لبنان: دار التنوير.

يوسف كرم. (١٩٦٢). تاريخ الفلسفة الحديثة. القاهرة: دار المعارف.